ما زال الكلام في المحطة الثانية، فيما يرتبط بمرجع الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ وتبين لنا أن هذا البحث ليس مجرد بحث نحوي أدبي لا يترتب عليه اختلاف في المعنى، بل هو من البحوث التي يترتب عليها اختلاف في المعنى. وهذا من البحوث التي تندرج تحت ما ذكره الشهيد الثاني رحمته الله في باب القضاء، عندما تعرض للعلوم التي يجب على المجتهد أن يكون عارفاً بها. فعندما جاء إلى علم النحو بين أنه لا بد أن يكون عالماً بما تغير المعنى بتغيره، ومن أمثلة ذلك تتعلق الجار والمجرور، فمرة يتعلق الجار والمجرور بهذا الفعل يكون له معنى، ومرة يتعلق بذلك الفعل يكون له آخر.

من جملة الأمور التي لا بد أن يكون المفسر عالماً بها أن يستظهر مرجع الضمير؛ لأنه يختلف المعنى باختلافه كما بينت سابقاً.

قبل أن نبحت في ما هو الأولى من هذه الوجوه الثلاثة، لفت نظري كلام للماوردي في كتاب النكت والعيون، عندما تناول هذه الآية المباركة ذكر أنه يوجد فيها ثلاثة وجوه، فهو من ناحية العدد نفس ما ذكرناه، لكن عندما أراد أن يفصل هذه الوجوه ذكر شيئاً غريباً، وهي:

الوجه الأول: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ أي على حب الطعام. ونسب ذلك إلى مقاتل.

الوجه الثاني: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ أي على شهوته. ونسب ذلك إلى الكلبي.

الوجه الثالث: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ﴾ أي على قلته. ونسب ذلك إلى قطرب.

كلامه ظاهر، بل صريح في أن الاختلاف في هذه الوجوه ليس في مرجع الضمير، بل في معنى حب، وإلا فالضمير في جميعها يرجع إلى الطعام. على حب الطعام وهو المعنى الظاهر، وعلى اشتهاؤه للطعام،

وعلى قلة الطعام، فالضمير مرجعه واحد، وصورّ الخلاف على أساس أنه خلاف في تفسيره كلمة الحب.

هل نحافظ على معناها الظاهر أم نستعملها مجازاً في القلة أو في الشهوة. وهذا أمر -فعلاً- غريب، وليس متعارفاً عند علماء التفسير، وما هو متعارف عند علماء التفسير هو الاختلاف في مرجع الضمير لا في تفسير كلمة حب.

ولعل الذي أوقعه في الوهم، هو أن الوجه الأول من الوجوه الثلاثة التي تقدمت في الدرس السابق، والذي هو القول المشهور، أنه ﴿عَلَى حَبِّهِ﴾ أي على حب الطعام، فقد تأتي شبهة إلى الدهن، وهي أنهم أبرار ويحبون الطعام! فكيف يجتمع ذلك؟ الذين ذهبوا إلى هذا القول فسروا الآية أنهم يحبون الطعام لحاجتهم إليه أو لقلته. فمعنى الحب ليس بمعنى أنه يحب الأكل، بل بمعنى في حال حاجتهم إليه؛ لعدم وجود غيره أو لقلته أو ما شابه ذلك.

فما ذكره هو تبرير للوجه الأول، وليست وجوه وقعت فيها الخلاف. فإذاً الخلاف في مرجع الضمير لا في تفسير كلمة الحب.

عرفنا أن القول المشهور بين علماء التفسير هو إرجاع الضمير إلى الطعام.

في مقام الثبوت ظاهرهم أنه لا مانع من الوجوه الثلاثة، فالوجه الأول يرجع إلى الإيثار، والوجه الثاني يرجع إلى الإخلاص والوجه الثالث يرجع إلى الإخلاص. وجوه ثلاثة مختلفة وكلها لا مانع منها، فالأبرار مؤثرون، الأبرار مخلصون، الأبرار يحبون وجوه البر.

فالظاهر أنه ثبوتاً لا مانع من الالتزام بهذه الوجوه الثلاث.

إنما الكلام فيما يمكن أن يستظهر في مقام الإثبات، هناك كلام للعلامة الطباطبائي رحمته الله يظهر منه أن الوجه الثالث ممتنع ثبوتاً على تقدير، فلا تصل النوبة إلى البحث الإثباتي؛ لأن هذا الوجه في حد ذاته غير صحيح، لأنه ما هو المقصود من حب الإطعام؟ فالمفروض الضمير يرجع في الوجه الثالث إلى الإطعام.

حب الإطعام في حد ذاته ليس صفة يمدح عليها الإنسان، فضلاً عن كونه صفة يمدح عليها الأبرار، فالآية في مقام بيان الصفات التي لأجلها صاروا هؤلاء من الأبرار الذي أعطوا النعيم الذي تقدم الإشارة إلى بعض مظاهره سابقاً، أن يكون شخصاً يحب الإطعام ليس شيئاً يمدح عليه. فإذا ليس شيء يمدح عليه، فيمتنع أن يقع في مقام بيان مدح ووصف هؤلاء بهذه الأوصاف.

وإذا أريد من الإطعام أنهم يطعمون بطيب نفس، فهذا مظهر من مظاهر الجود والكرم فيمدح عليه، لكنه حينئذ خلاف الظاهر. الإطعام ليس بمعنى الإطعام بطيب نفس. إذاً على تقدير يكون هذا الوجه ممتنع ثبوتاً، ولا يتناسب مع الآية.

لكن لا نرتضي ذلك؛ لأن حب الإطعام يمكن أن نحافظ على معناه الحقيقي، والإطعام هو من أبرز مظاهر وجوه البر، وهؤلاء يحبون الأعمال الخيرة في حد ذاتها، ولذا قلنا سابقاً أنه ثبوتاً لا مانع من الالتزام بهذه الوجوه الثلاثة

إذاً الصحيح أن نتحرك في هذه المسألة على القرائن التي تعين واحد من هذه الوجوه الثلاثة. هناك قرائن خارجية وقرائن داخلية:

أما القرائن الخارجية، فالكثير من أرباب الوجه الأول استندوا إلى آيات في القرآن الكريم، من جملة هذه الآيات ما ورد في سورة آل عمران ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾¹ تحبون ما تنفقونه، شيء محبوب لدي وأنفقه. ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب الطعام. وآية ثانية قوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾² وآية ثالثة قوله تعالى: ﴿يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾³.

فمثل الفخر الرازي استند إلى هذه الآيات بتمامها. والعلامة الطباطبائي رحمته الله اقتصر على آية سورة آل عمران، وهذه التفاتة منه في غاية الأهمية - وهو لم يبين سبب الاقتصار على ذلك - لنفترض آية في واقعة من الوقائع تمدح جماعة لكونهم ينفقون مع حبهم لما ينفقونه، هذا لا يلزم منه أن تكون في واقعة أخرى يمدحهم لأجل هذا السبب، ربما يمدحهم لأجل إخلاصهم، أي مانع من ذلك؟

¹ آل عمران: 92

² البقرة: 177

³ الحشر: 9

فتلك الآيات لا تكون قرينة على تفسير هذه الآية، بخلاف آية سورة آل عمران ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾⁴ الكلام فيها عن البر، فالذي ينال البر يصبح من الأبرار، فتنسجم مع هذه الآية تمام الانسجام.

بخلاف ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾⁵ ففي هذه الآية وصفهم بهذه الصفة، وفي آية أخرى ربما يصفهم بصفة أخرى. لكن باعتبار أن آية آل عمران تتكلم عن البرّ وعمّا ينال به الإنسان هذه الصفة، فتنسجم مع هذه الآية التي نحن فيها، فتصلح قرينة خارجية على تفسيرها. وأما القرائن الداخلية، فيمكن أن نشير إلى قرينتين:

القرينة الأولى: لم أجد من ذكرها، وهي أن الوجه الأول مرجعه مذكور صراحة ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾ أما الوجه الثاني يطعمون الطعام على حب الله، لفظ الجلالة غير مذكور، وأما الوجه الثالث يطعمون الطعام على حب إطعام الإطعام غير مذكور، فالمرجع متصيد، فإذا دار الأمر بين مرجع مذكور ومرجع متصيد فهذا هو الأولى.

القرينة الثانية: بعد هذه الآية مباشرة ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فهذه الآية ذكرت الإخلاص، نطعمكم فقط لأجل الباري تبارك وتعالى.

فحينئذ يدور الأمر بين أن تكون هذه الآية الثانية للتأكيد وبين أن تكون للتأسيس، والتأسيس أولى من التأكيد؛ لأن التأسيس يأتي لإفادة معنى جديد.

فيكون مجموع الآيتين ونتيجتهما، أن هؤلاء مع حاجتهم للطعام يطعمون، وأن هؤلاء في إطعامهم مخلصون، فتكون قد أفادت معنى متكامل. بخلاف ما لو قلنا يطعمون الطعام على حب الله، فتكون الآية ثانية تكرر لما أفيد في الآية السابقة.